حديث الإفك

حديث الإفك هو حديث القصة التى أشاعها بعض المنافقين عن السيدة عائشة (رضى الله عنها) وعلى رأسهم عبد الله بن أبى بن سلول زعيم المدينة الموتور الذى لم ينس قط حقده على النبى ولا على الإسلام والمسلمين .

وحديث الإفك هذا هو الحديث الذى اجتمعت له كل بواعث الفضول والوشاية التى تغرى ألسنة الناس بالخوض فى أمثال هذه الأحاديث ، ولو كانت من نسج الخيال واختراع القصاص .

فمن دأب الناس قديماً أن يتطلعوا إلى الأسرار ، ويكثروا القيل والقال فى الوشايات .

وهم أشد تطلعاً إليها وكلفاً بالقيل والقال فيها إذا اشتملت على وشاية من وشايات الرجال والنساء ، ولولا كلفهم بهذا لما اخترعت لهم القصص والروايات التى يقرأون فيها أخبار رجل لا وجود له وامرأة لا وجود لها ، وهم يعلمون أنهما من نسج الخيال

ولكنهم أشد من ذلك تطلعاً إليها وكلفاً بالقيل والقال فيها إذا هى تعلقت بعظماء الرجال وعظماء النساء .

ثم يبلغ التطلع أشده والكلف حده إذا كان لأحد من الناس غرض فى ترويج الإشاعة واللغط بها ، والاسترسال فى ذيولها وحواشيها

فإذا كان هذا الغرض على اتصال بالعصبيات القومية والعقائد العامة التى تصطرع حولها الأهواء وتضطرم فيها الضغائن ويطول فيها جدل المصدقين والمكذبين ، ونزاع المحبين والمبغضين . فقد اجتمعت للقصة — كما قلنا فى صدر هذا الفصل — كل بواعث الفضول والوشاية ، وأحاطت بها كل مغريات اللغط والتشهير

وهذا الذى حدث بحذافيره فى حديث الإفك الذى تولى كبره زعيم الخزرج فى المدينة عبد الله بن أبى بن سلول

فهو حديث وشاية عن رجل وامرأة

وهما أعظم الرجال وأعظم النساء

وفى اللغط به غرض قوى لأكبر زعماء الخزرج فى زمانه ، وغرض قوى لكل من يبغى المساس بالنبى ، وبالإسلام كله من طريق المساس بنبى الإسلام

ولولا ذلك لما سُمع بحديث الإفك ، ولا استحق أن يُصغى إليه ، لأنه أوهى وأسخف من أن يطول فيه تصحيح وتفنيد

وكأى من رئيس فى قومه وُتر كما وتر ابن سلول ، واشتمل قلبه على البغض كما اشتمل قلب ابن سلول على بغض النبى ،

وأحب أن يهدم دعوة من الدعوات كما أحب ابن سلول أن يهدم دعوة الإسلام ، لكنه مع كل هذا يتورع عن رجم المحصنات بالباطل ويمسك لسانه عن الخوض فى وشايات الدنس لأنها مسبة لا تجمل بمروءة الكرام .

إلا أن ابن سلول لم يكن من هؤلاء الرؤساء المتورعين المترفعين ، ولم يكن له من أخلاقه ما يعصمه أن يكذب وأن ينافق وأن يداهن ، وأن يصطنع الوشاية ويلغ فى الأعراض ، لأنه كان مطبوعاً على النفاق مشهوراً به بين أصحابه وخصومه على السواء .

كان زعيم الخزرج بالمدينة فكان ينافس زعماء الأوس بها فى إرضاء النبى والتزلف إليه ، ثم يخلو بأعداء الإسلام فيؤلبهم على المسلمين ويسول لهم قتل النبى ويوغر صدورهم على هذا الدين الجديد ، وكل منتصر له وكل منتسب إليه .

وقبيل حديث الإفك بأيام قليلة كانت فئة من الأنصار والمهاجرين تستقى ، فتنازع رجلان منهما على الماء كما يحدث على كل بئر وفى كل مورد يكثر حوله القصاد . فلم يدعها ابن سلول تنقضى دون أن يثير فيها الثائرة التى ود أن تعصف بالمسلمين أجمعين . وقال مستهولا : أو قد فعلوها ؟ والله ما أرانا وجلابيب قريش هذه إلا كما قيل : سمن كلبك يأكلك . أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز من الأذل .

وأقبل على من حضره من قومه يحرضهم ويقول لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم . . . أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم . وأما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير دياركم ! !

ونمى الحديث إلى النبى عليه السلام ، فأسرع إليه ابن سلول يقسم ويبالغ فى القسم أنه ما نبس بحرف منه .

فالخوض فى الوشايات والولوغ فى الأعراض هو أشبه شىء بأخلاق هذا الرجل الذى مرد على النفاق وأصبح وأمسى حياته كلها بين الدس والاختلاق ، وله من الوتر العظيم الذى وتر به شفيع عند طبعه السقيم ، لأنه أضاع الملك والتاج بظهور الإسلام .

قال أسيد بن حضير زعيم الأوس يسأل النبى عليه السلام ألا يدع المدينة لعبد الله بن سلول : يا رسول الله ارفق . فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه ليتظمون له الخرز ليتوجوه . فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً »

فلا جرم يكون له غرض أى غرض فى ترويج حديث الإفك واتخاذه مطعناً فى الإسلام من وراء الطعن فى كرامة نبى الإسلام . ولهذا لم يلبث أن أفلتت منه نيته فظهرت من بوادر لسانه فى الكلمة التى قالها حين مرت به السيدة عائشة على جمل يقوده صفوان بن المعطل ، فقد حكى عنه أنه سأل : من هذه ؟ فقيل : عائشة . قال : امرأة نبيكم باتت مع

رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها .

وإن غرض ابن سلول هذا لهو بعينه غرض كل متشبث بحديث الإفك إلى يومنا هذا ، ليتخذ منه سبيلا إلى الطعن فى الإسلام ونبى الإسلام ، وبخاصة بين المبشرين من المستشرقين

فمن هؤلاء من غلب عليه أدب التربية فاستبعد حديث الإفك كما فعل موير Muir حيث قال بعد الإشارة إليه : « إن سيرة عائشة قبل الحادث وبعده لتوجب علينا أن نعتقد براءتها من التهمة »

ومنهم من نقل الحكاية وخلطها بالمعجزات التى لا يصدقها غير المسلم ، كما فعل وشنطون ارفنج فى سيرة النبى عليه السلام ، فلم يقطع بنفى صريح ، وترك الباب مفتوحاً للأقاويل

ومنهم من جاوز الحقيقة فى وصف ما جاءت به الروايات ، فزعم أن السيدة عائشة ابتعدت عن النبى يوماً كاملا قضته فى صحبة صفوان ، خلافاً لما جاء فى قصة نقلت إلينا عن حديث الإفك ، ونعنى به ردويل صاحب ترجمة القرآن حيث عرض لهذا الحديث فى حاشية من حواشيه على سورة النور

وهؤلاء مع هذا هم أشد المستشرقين تقية وحذراً فى تعرضهم لهذا الحديث .

لكن المبشرين المحترفين لم يتقوا هذه التقية ولم يحذروا هذا

الحذر ، بل جزموا بصحة الحديث وقال بعضهم إن محمداً استنزل الآيات فى سورة النور ليحمى سمعة زوجته ويدين الوشاة بالعقاب الذى ورد فى تلك السورة . وجهلهم بالقرآن هو الذى أوقعهم فى تلك الفرية الوضيعة التى يخبطون فيها على غير علم بمصادرها ومواردها ، فإن سورة النساء وهى سابقة لسورة النور قد نصت على الأربعة الشهود فى إثبات الزنا : « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا »

وآخرون من أولئك المبشرين المحترفين رجعوا إلى تاريخ الغزوة التى جرى بعدها حديث الإفك ليقولوا إن الليلة كانت غير قمراء ، وإن البحث عن العقد الضائع فيها عسير . مع أن الاختلاف على سنة الغزوة — فضلا عن شهرها وليلتها — كثير يتراوح بين السنة الرابعة والسنة السادسة وما بعدها ، فجاءوا هم وأخذوا بالقول الذى يعجبهم ويعينهم على فريتهم . وهم حتى فى هذا مغرضون متعسفون ، لأن ابتداء المسير إلى الغزوة فى الثانى من شعبان لا يمنع أن الجيش قضى أياماً فى ذهابه وإيابه ، وعاد والليلة قمراء فى صحو البلاد العربية . ولو كان فى الأمر محل اعتراض من هذه الناحية لما فات الذين حضروا الغزوة وشهدوا النور والظلام فى تلك الليلة ، وهم قصاص

الأثر وأصحاب القمر فى الحل والسفر ، وفيهم من يحرص على التشهير كحرص هؤلاء المبشرين .

ومن الإسفاف أن نتتبع هؤلاء الوشاة فى كل ما خبطوا فيه من إثم وكل ما رجموا به من ظن . كأن أخلاق الناس وحقائق التاريخ رهن بما يتمحلونه ووقف على ما يختلقونه . وما كانت وشاياتهم تلك بحثاً يستند إلى رأى أو ظناً يعتمد على قرينة ولكنها كانت كذباً لا يليق بالمؤرخ وسوء نية لا يليق بالإنسان ، وخسة فى حق امرأة شريفة لا تليق بالرجل الكريم .

وإنما أومأنا إلى ضروب من تلك الوشايات لنعلم أن الحذر واجب هنا على قدر ضخامة الأغراض التى تخلق الوشاية وتنطلق فى ترويجها إلى أيامنا هذه ، وإلى ما بعد هذه الأيام ؛ ما دام فى الدنيا أناس يستبيحون أن يجترئوا بالشبهات على امرأة لا ذنب لها إلا أنها زوج نبى يريدون التشكيك فيه .

على أننا من الجهة الأخرى نبرئ السيدة عائشة من هذه المظنة ولا نعتمد فى التبرئة إلا على الفهم الذى يفهمه المسلم ومن لا يدين بالإسلام ، ويقبله صاحب الدين ومن لا يأخذ بدين من الأديان ، لأن براءتها ليست من الخفاء بحيث لا يقام عليها الدليل إلا من وحى السماء .

وكفى دليلا هنا أن ليس على الظنة بها أقل دليل

* * *

نشأ حديث الإفك بعد عودة النبي من غزوة بنى المصطلق، وقد كان مسير الجيش فى عودته من هذه الغزوة مضطرباً أشد الاضطراب ، لشيوع الفتنة بين المسلمين وأتباع عبد الله ابن أبى بن سلول رأس المنافقين وزعيم الخزرج أقوى قبائل المدينة ، والرجل الذى جامله النبي عليه السلام كل مجاملة كريمة فلم يقلع عن نفاقه ولم يدع قط فرصة من فرص الكيد والسعاية .

فى طريق العودة من غزوة بنى المصطلق نجم ذلك الخلاف الذى أشرنا إليه على السقاية من بعض الآبار . فصاح صائح : يا للخزرج ! وصاح الآخر : يالكنانة . يا لقريش ! وشهر الفريقان السلاح فخرج النبى غاضباً لهذه العصبية التى كره أن يحييها الخلاف فى جيشه وسأل : ما بال دعوى الجاهلية ؟ ثم قال : دعوها فإنها منتنة

واغتنم عبد الله بن أبىّ الفرصة فطفق يحضأ فى النار ويصيح فى كل من لقيه : « ما رأيت كاليوم مذلة . والله إنى لقد ظننت أنى سأموت قبل أن أسمع هاتفاً يهتف بما سمعت . أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز من الأذل . حتى قال لأتباعه . لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضاً للمنايا فقتلتم دونه — يعنى النبى — فأيتمتم أولادكم وقللتم وكثروا فلا تنفقوا عليهم حتى ينفصلوا من عند

محمد » إلى آخر ما قال وبلغ النبى عليه السلام

وشاع الخبر فأذن النبى عليه السلام بالرحيل فى ساعة لم يكن يرحل فيها لشدة الحر ، وسأله أسيد بن حضير : يا نبى الله ! لقد رحلت فى ساعة منكرة ما كنت تروح فى مثلها ؟ فقال : أما بلغك ما قال صاحبكم ! يشير إلى كلام ابن سلول

ثم سار الجيش سيراً حثيثاً وجعل النبى عليه السلام يضرب راحلته بالسوط فى مراقها ليستعجلها ؟ وانقضى اليوم وليلته وصدر من اليوم التالى حتى آذنتهم الشمس ، ثم نزل الناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض حتى وقعوا نياما .

ولما أخذوا فى المسير هاجت ريح شديدة كادت تدفن الركب وخطر لبعض الجند أن عيينة بن حصن ربما أغار على المدينة فى هذه الغاشية لانقضاء مدة الموادعة بينه وبين المسلمين . فكان هذا من دواعى العجلة واضطراب مواعيد الرحيل.

ثم دنا الليل وهم على مقربة من المدينة فأناخ الركب للراحة وذهبت السيدة عائشة لبعض شأنها ثم تفقدت عقدها وهى راجعة فإذا به قد انسل منها فحبسها التماسة هنيهة ، ثم عادت إلى مكان هودجها فإذا بهم قد احتملوه وهم يحسبونها فيه ، لخفتها . وتهيب الجند الذين يرحلون لها أن ينادوها أو يستوثقوا من وجودها .

فأقامت حيث هى وظنت أنهم سيرجعون إليها لا محالة إذا أحسوا غيبتها .

وكان صفوان بن المعطل على ساقة الجيش يتخلف عنه ليلتقط ما يسقط من المتاع . وربما كان النبى عليه السلام يعهد إليه فى ذلك لأنه كان ثقيل النوم لا يستيقظ حتى يأخذ الجيش فى المسير ، وقد شكته امرأته إلى النبى لأنه ينام ولا يصلى الصبح قبل طلوع الشمس .

فكان عليه السلام يعلم ذلك منه ويقول له : إذا استيقظت فصل !

وقد يحسن هنا أن نوجه شكوى امرأته إلى بعض معانيها ، كأنها أرادت بثقل النوم كناية عن أمر آخر لا تفصح عنه ، إذ قيل عن صفوان هذا إنه كان « حصوراً » لا يأتى النساء ، وسمع وهو يقسم بعد حديث الإفك أنه ما كشف عن كنف امرأة قط .

فلما نهض صفوان ليتبع الجيش فى ساقته رأى سواداً على البعد ثم عرف السيدة عائشة فجعل يسترجع ويعيد استرجاعه : إنا لله وإنا إليه راجعون : إنا لله وإنا إليه راجعون . . . كأنه ينبهها بالاسترجاع لأنه يتهيب التحدث إليها . ثم قرب البعير وقال : أمه . قومى فاركبى ، وأخذ بزمام البعير يقوده حتى أدرك الجيش فى نحر الظهيرة .

حدث هذا وابن سلول لم يفرغ من دسيسته الأولى التى أزعجت الجيش وأوقعت الاضطراب فى حركاته ومواعيد رحيله ومبيته ؛ فسنحت له الفرصة للقيل والقال لا يضيعها الرجل الذى عز عليه أن تنقضى مشاجرة بين أجيرين على الماء دون أن يثير فيها تلك الثائرة الهوجاء ؛ وراح يقول : والله ما نجت منه ولا نجا منها ، وأطلق لسانه فى حديث الإفك على الطريق وبعد العودة إلى المدينة ؛ عسى أن يوقع بين النبى وأقرب الأصدقاء إليه أبى بكر الصديق ؛ أو يفلح فى تشكيك المسلمين فى كرامة نبيهم ، أو يقيم بين قومه الخزرج وسائر المسلمين شغباً يقعون فيه عصبية له وأنفة من هوانه ، فينتقض أمر الإسلام من أوس وخزرج وأنصار ومهاجرين

قالت السيدة عائشة فى بعض ما روى عنها : « وقدمنا المدينة فاشتكيت شهراً والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك ، ووصل الخبر إلى النبى وإلى أبوى ولا أشعر بشىء من ذلك ، وكان يريبنى أنى لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى . إنما يدخل على فيسلم وعندى أمى تمرضنى . ثم يقول : كيف تيكم ؟ ثم ينصرف . فذاك الذى يريبنى . حتى خرجت بعد ما نقهت فخرجت معى أم مسطح وهى بنت خالة أبى بكر . . . وعثرت أم مسطح فى مرطها فقالت : تعس مسطح ! . . .

قلت لها : بئس ما قلت : أتسبين رجلا شهد بدراً ؟ . . .
قالت : يا هنتاه ؛ أو لم تسمعى ما قال ؟ قلت : وما قال ؟
فأخبرتنى بحديث أهل الإفك . فازددت مرضاً على مرضى ،
ورجعت إلى بيتى فمكثت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ
لى دمع ولا أكتحل بنوم . ثم دخل رسول الله وقال بعد أن سلم :
كيف تيكم ، فاستأذنته أن آتى بيت أبوى وأنا أريد أن أتثبت
الخبر من قبلهما . فأذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم
فجئت أبوى ودخلت الدار فوجدت أم رومان فى السفل
وأبا بكر فوق يقرأ . فقالت أمى : ما جاء بك ؟ قلت لأمى :
يغفر الله لك . تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين
لى من ذلك شيئاً ؟ قالت : يا بنية ! هونى عليك . فوالله
لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن
عليها . . . فاستعبرت وبكيت ، فسمع أبو بكر صوتى
فنزل فقال لأمى : ما شأنها ؟ فقالت : بلغها الذى ذكر
من شأنها ففاضت عيناه . وبكيت تلك الليلة والليلة التى بعدها
وأبواى عندى يظنان أن البكاء فالق كبدى . . فبينا نحن
على ذلك دخل علينا رسول الله فسلم ثم جلس وتشهد وقال :
أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا . فإن كنت
بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى
الله وتوبى فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تعالى

تاب الله عليه . . . فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه بقطرة ، وقلت لأبى : أجب رسول الله ! قال : والله لا أدرى ما أقول . فقلت لأمى : أجيبى ، فقالت كذلك والله ما أدرى . . . ثم قلت : لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى نفوسكم ، فلئن قلت لكم إنى بريئة والله يعلم أنى بريئة لا تصدقونى . ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقنى . فوالله لا أجد لى ولكم مثلا إلا قول أبى يوسف عليه السلام : فصبر جميل والله المستعان. ثم تحولت فاضطجعت على فراشى وما كنت أظن أن الله ينزل فى شأنى وحياً يتلى . . . وكنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا فى النوم يبرئنى الله بها . وعند ذلك قال أبو بكر رضى الله عنه : ما أعلم أهل البيت من العرب دخل عليهم ما دخل على . والله ما قيل لنا هذا فى الجاهلية حيث لا يعبد الله فيقال لنا فى الإسلام . . . فأخذ رسول الله ما كان يأخذ عند نزول الوحى ، فسجى ووضعت له وسادة من أدم تحت رأسه ، فلما سرى عنه إذا هو يضحك وإنه لينحدر منه العرق مثل الجمان ، فجعل يمسح العرق عن وجهه الكريم وكان أول كلمة تكلم بها : يا عائشة ؛ أما إن الله قد برأك . فقالت أمى : قومى إليه . قلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله . وتناول رسول الله درعى فدفعت يده فأخذ

أبو بكر النعل ليعلونى بها . فمنعه رسول الله وهو يضحك ويقسم عليه ألا يفعل . . . »

إلا أن النبى عليه السلام قضى فترة من الوقت قبل ذلك وهو فى قلق شديد لا يدرى ماذا يفعل . واستشار الصحابة فقال له عمر بأسلوبه الحاسم : من زوجها لك يا رسول الله ؟ قال : الله تعالى ! قال : أفتظن أن الله دلس عليك فيها ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم ! . ودعا علياً وأسامة بن زيد ليستأمرهما فى فراق أهله . فقال أسامة بن زيد : أهلك يا رسول الله ولا نعلم إلا خيراً ، وقال على : يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير . وإن تسأل الجارية — يعنى بريرة — تصدقك . فدعا بها وسألها : أى بريرة ! هل رأيت من شىء يريبك ؟ قالت : والذى بعثك بالحق ما رأيت عليها أمراً أغمضه أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجينها فتأتى الداجن فتأكله . وسأل زينب بنت جحش وهى أحب نسائه إليه بعد عائشة فقالت : أحمى سمعى وبصرى . ما علمت إلا خيراً . والله ما أكلمها وإنى لمهاجرتها ، وما كنت أقول إلا الحق .

وفى خلال ذلك كان عليه السلام يتأذى بحديث الإفك فخطب المسلمين قائلا : أيها الناس ! ما بال رجال يؤذونى فى أهلى ويقولون عليهم غير الحق ؟ . . ولقد ذكروا رجلا

ما علمت عليه إلا خيراً ولا يدخل بيتاً من بيوتى إلا وأنا حاضر ولا غبت فى سفر إلا غاب معى يقولون عليه غير الحق . . فقال أسيد بن حضير : يا رسول الله . إن يكونوا من الأوس نكفيكهم وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا أمرك . فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم . فوثب سعد بن عبادة وصاح به كذبت لعمر الله ما تضرب أعناقهم . أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا . وهم به أسيد بن حضير وتساور الناس حتى كادت تكون فتنة ، لولا أن أدركهم النبى بحسن توفيقه .

* * *

هذه خلاصة حديث الإفك بحذافيره كما بقى لنا فى مصادره التى يعتمد عليها اليوم كل باحث فى موضوع هذا الحديث ، كائناً ما كان ظنه بالإسلام أو النبى وأهله .

وفى وسع القارئ أن يعرف قيمة هذه الوشاية من نظرة واحدة ، فهى على التحقيق وشاية لا قيمة لها عند منصف يلمس من ورائها تربة الكيد والوقيعة التى نبتت فيها ، إذ هى تربة وبيئة تنضح بسخائم الخصومة الدينية والسياسية ومساوئ الخبث والكذب والنفاق . وخليق بها أن تبعث الشك فى كل حديث ينبت بين طياتها ولو زعموا له من الأسانيد والشبهات

أضعاف ما زعموا لهذه الوشاية الواهية . وليس لها من سند ولا شبهة إلا أن السيدة عائشة تأخرت فى الطريق هنيهة حين تحرك العسكر على حين فجأة ، وقد كانت الرحلة كلها كثيرة المفاجآت فى مواعيد النزول والرحيل

تلك شبهة لا تكفى للشك فى امرأة من عامة المسلمين الخارجين للجهاد فى حضرة نبى الإسلام . إذ لو كانت كل امرأة تتأخر فى الطريق تؤخذ بالتهمة فى دينها وعرضها لكانت التهم فى الأعراض أهون شىء يخطر على بال

بل لو تأخرت كل امرأة فى الركب غير السيدة عائشة لجاز أن تلحق بها شبهة من هذا التأخير . لأن الركب لم تكن فيه امرأة غيرها يهابها الموكلون بهودجها أن ينادوها ليتأكدوا من وجودها ، ولم تكن فيه امرأة أخرى تهاب الرقبة من جيش المسلمين كما تهابها وهى زوج النبى وبنت الصديق ، وقد كان أبوها يحمل راية المهاجرين فى تلك الغزوة بعينها .

وعلى الذى يقبل وشاية كتلك الوشاية الواهية أن يروض عقله على تصديق أمور كثيرة لا موجب لتصديقها ، لأنها تفتقر إلى كل دليل والأدلة على ما يناقضها كثير

عليه أن يصدق أن صفوان بن المعطل كان رجلا لا يؤمن بالنبى ولا بأحكام الإسلام

وأن يصدق أن السيدة عائشة كانت — وهى زوج النبى —

لا تؤمن به ولا تعمل بدينه

ولا دليل على هذا وذاك

بل الأدلة على إيمان صفوان وإيمان عائشة تجرى فى كل سياق وردت لهما سيرة فيه

فصفوان كان مسلماً غيوراً وكانت غيرته فى حادثة الماء التى تصاول فيها المهاجرون وأتباع ابن سلول هى التى عرضته لهجاء حسان بن ثابت ، ولعلها هى التى بغضته إلى ابن سلول فتمادى من أجل ذلك فى اتهامه ، وقد حضر الغزوات ومات شهيداً ولم يذكر قط بسوء

والسيدة عائشة آمنت بكل كلمة قالها النبى وحفظتها حفظ من يتبرك بها ولا يغفل عنها . ومن إيمانها بصدق هذه الكلمات أنها اشتبكت فى خصومات دامية تثير الحفائظ وتهون عليها أن تحارب خصومها باختلاق الأحاديث التى تزرى بهم وتبطل دعواهم لوكانت ترتاب فى صدق الأحاديث كلها . ولكنها لم تبح لنفسها قط شيئاً من ذلك ولم تذكر حديثاً قط على غير وجهه الذى تؤيده الروايات الأخرى . وقد كانت فى طريقها إلى وقعة الجمل بعد وفاة النبى بزهاء ثلاثين سنة ، فنبحتها كلاب على مقربة من ماء فى بعض الطريق ، فسألت : أى ماء هذا ؟ قال الدليل : هو ماء الحوأب . فأجفلت إجفالة مروعة وصاحت بحيث يسمعها أدلاؤها : إنا لله وإنا إليه

راجعون ، وضربت عضد بعيرها فأناخت وأبت أن تتحول من مكانها . فلما سئلت فى ذلك قالت : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وعنده نساؤه : ليت شعرى أيتكن تنبحها كلاب الحوأب ؟ ردونى . ردونى والله أنا صاحبة ماء الحوأب . وما زال الركب مقيما فى ذلك المكان يوماً وليلة وهى مصرة على الرجعة وهم يزعمون أن الدليل قد أخطأ وأن المكان غير المكان الذى تخشاه ، ولم يزل عبد الله بن الزبير يقنعها ويهدئ من روعها وهو ابن أختها وأحب الناس إليها وبه تكنى فى أشهر الروايات ، وهى تأبى المسير إلا أن تعود إلى مكة . حتى أرسلوا إليها من يصيح فى الركب : النجاء . النجاء . قد أدرككم على بن أبى طالب . فأذنت لهم فى المسير بها وقد أخافتها الصيحة وخامرها الشك فى كلام الدليل .

هذا وليس معها فى الركب من سامعى ذلك الحديث غيرها ، فكيف تغدر بالنبى زوجة تصدقه هذا التصديق ولا تأمن أن ينكشف سرها بوحى من الله ؟

ومن هى تلك الزوجة بعد هذا ؟ هى بنت الصديق الذى لم يوصم بيته بوصمة فى الجاهلية كما قال حتى يوصم بهذه الوصمة الكبرى فى الإسلام ومع نبى الإسلام .

إن أقوى الأدلة لا يحسم الشك هنا فضلا عن تلك الوشاية الواهية ويبقى على من يقبلهـــا أن يسأل نفسه بعد هذا : كيف

نشأت علاقة صفوان المزعومة ؟ أفى تلك الليلة بعينها ؟ فكيف اجترأ الرجل على مفاتحة أم المؤمنين وهم يتهيبون المناداة عليها فى هودجها ؟ بل كيف تخطر له هذه المفاتحة وهو لا يشك فى إيمانها بزوجها وليس له علم قبل ذلك بخبيئة صدرها ؟ وإذا اجترأ هذا الاجتراء هوساً منه كيف يصدق العقل أن امرأة النبى وبنت الصديق تكون هكذا لقطة لأول لاقط يصادفها ؟ إن التى تكون كذلك لا يخفى سرها حتى يكشفه حديث الإفك ويقتصر الحديث فيه على صفوان

أما إن كانت العلاقة المزعومة قبل ذلك فكيف خفيت بين الضرائر والحساد وقالة السوء من المنافقين ؟ وما أغناهما إذن عن المجازفة فى الطريق وعن الكارثة التى تنكشف للجيش كله فى نحر الظهيرة ؟

كل أولئك سخف لا يقبله إلا من يفترى بوشاية أو بغير وشاية وسواء فيه منافقو المدينة ومن يصنع صنيعهم من المؤرخين فى العصر الحاضر لأنهم لا يؤمنون بنبى الإسلام ، بل هؤلاء أنذل وأغفل . لأنهم يؤمنون بمريم والمسيح وكان عليهم أن يعصمهم عاصم من هذا الإيمان

* * *

إن تفنيد حديث الإفك له موضع فى كتابنا هذا لأنه حادث فى تاريخ السيدة عائشة له أثر فى الإسلام والشريعة

الإسلامية . وله أثر فى ضميرها لم يفارقها طوال حياتها ، وربما كان له أثر فى موقفها من تاريخ الإسلام ترتبط به ذيوله على نحو من الأنحاء . ولولا ذلك كله لما استحق من المؤرخ كبير التفات .

بعد النبى

عاشت السيدة عائشة بعد النبى ستاً وأربعين سنة ، وتوفيت وهى فى نحو السبعين من عمرها ، سنة ثمان وخمسين للهجرة

وقد توفى النبى عليه السلام فى بيتها وفى يوم زيارتها ، ودفن بالمكان الذى كان ينام فيه

وقد علم كثير من الناس عند اشتداد المرض به أنه مرض الوفاة ، ولكنه كان قد صحا بعض الصحو قبيل وفاته حتى استأذنه أبو بكر فى الخروج إلى بيته بالسنح ، وتفرق المسلمون متفائلين وهم يرجون الخير ويبعدون عن خواطرهم نذير الخوف . فلما قبض عليه السلام بعد ذلك روعت عائشة أيما روع وتعاظمها الخطب أن تملك صبرها وهو يموت بين سحرها ونحرها ، فنسيت لهول الساعة ما ينبغى لها أن تستقبل به هذا الوداع الذى لا يتكرر ولا تهونه سابقة وداع مثله : إنها أم